

أعلام الأدب

اسخيلوس والمسرح اليوناني للأستاذ دريني خشب

—•••—

وكان للتمثيل موسمان عند اليونانيين . فوسم الشتاء (الينايا Lenæa) وذلك هو موسم عصر الخمر عندهم ، وموسم الربيع (الديونيزيا Dionysia) حينما كانت تجتمع في أثينا وفود أحلافها^(١) ولم تكن تمثل على المسرح اليوناني إلا كل درامة تنجح أمام هيئة المسابقة ، وكانت المسابقات تعقد ثلاث مرات^(٢) في السنة بإشراف الحكومة التي كانت تمثلها الهيئة الدينية

وقبل أن ينشأ مسرح ديونيزوس العظيم على منحدر الأكرابوليس الجنوبي الشرقي كان لأثينا مسرح آخر في مكان سوقها وكانت مدرجته من عروق الخشب ، وقد حدث أن سقطت هذه المدرجات مرة في نزاع كبير نشب بين أنصار كل من اسخيلوس وبراتيناس وخوريولوس في الأولياد السابع (٤٩٩ ق . م) فقتل خلق كثير من النظارة ، وكان هذا الحادث هو الباعث لبناء مسرح ديونيزوس^(٣) ، حيث صنعت المدرجات من الحجر على الحدود الراسخ فكانت تسع لثلاثين ألف متفرج

وكان مكان التمثيل هو الدائرة المنخفضة الوسطى من المسرح وكانت تسمى المرقص أو الأوركسترا Orchestra

وفي وسط المرقص كان يقام المحراب الذي يبدل فيه الممثلون ملابسهم وأزياءهم التنكرية ، وقد رؤى أن يكون إلى خلف المرقص حين رفعت أرضه بالخشب لتناسب مع المدرجات العالية أمامها

ولما كان المسرح في مثل هذا الاتساع الهائل عمد الأثينيون إلى حيل المكياج ليضخمو الممثلين بحيث ترام الصفوف الخلفية ، فكان هؤلاء يلبسون أخفافاً كباراً لها أعقاب عالية من الخشب ،

(١) بركليز للأستاذ E. Abbot من ٢٩٣

(٢) خلاصة الأدب لبرنكوتر ص ١٧٧ (٣) راسكوس ص ٤٣

وثياباً سمكة محشوة ومبطنة ببطائن متفتحة ، وقد يكون للشوب ذيل فضفاض يجرده الممثل وراءه

وكانوا يلبسون الأوجه التنكرية الكبيرة التي تلائم المشهد الروائي ، فإذا كان المشهد محزوناً ظل الوجه عابثاً بادي الألم ، وإذا كان المشهد مضحكاً بدت على الوجه أسارير المرح وقسمت الضحك أو علامته التهزيل

وكا عمدوا إلى ذلك لتضخيم الممثلين فكذلك عمدوا إلى فم الوجه التنكرى فنفخوه بحيث يخرج الصوت منه مدويًا يجعل في أرجاء المسرح فلا تضيع كلمة واحدة على نظارة الصفوف الخلفية وقد أدى هذا المكياج العجيب إلى بطء الحركة في المرقص ببطء شديداً لأن تلك الأخفاف الخشبية ذات الأعقاب العالية لا تعمل على السرعة بل تعمل على البطء ، هذا إلى اضطراب الممثل أن يتجه دائماً إلى الواجهة التي يمر عنها الوجه التنكرى الذي يلبسه ، لأنه لا يستطيع تبديل (تقاطيعه) حسب ما يقتضيه سياق الحديث^(١)

وكانت طبيعة هذا المسرح الضخم الرحيب تقتضي أن يكون الممثل حاذقاً بارعاً ملماً بدقائق فنه خبيراً بتوجيه الصوت الذي كان ينبغي أن يكون دائماً جهوريًا عاليًا في غير حشجة ولا تصديع وقد كان الشعراء أنفسهم — وهم مؤلفو الدرامات — يقومون بتمثيل الأدوار المهمة ويقولون في الوقت نفسه مهمة الإخراج والإشراف الشامل على تمثيل الأدوار الأخرى ... وقد ظل إسخيلوس وسوفوكليس يمثلون أدوارهم حتى اضطرا إلى التخلي عن ذلك حينما ضعف صوت إسخيلوس ورأى سوفوكليس أن يستعمل ممثلاً آخر يقوم عنه بهذه المهمة ، ومن هنا نشأ الاحتراف في التمثيل حوالي سنة ٤٥٦ ق . م

واسخيلوس هو أول من اتخذ ممثلين بدل ممثل واحد يقوم بمعظم الأدوار الهامة في الدرامة . وقيل إن سوفوكليس زاد عدد الممثلين فخطهم ثلاثة ؛ وقيل إن إسخيلوس هو الذي صنع ذلك وسنه لمن جاء بعده

وكانت أدوار النساء تستند عادة إلى الصبيان الرُرد ذوي الصوت الناعم الرخيم . وقد مثل سوفوكليس نفسه دور الحبسة

(١) ستوارت ص ١٧٥

في إسخيلوس هم صلب الرواية، وهم حاضرون أبداً في الأوركسترا لا يبارحونه ... أما في سوفوكليس، أو في درامته فيلوكتيتس^(١) Philoctetes فلا تكاد تحس للخورس تلك الأهمية، بل لا تكاد تحس لهم أهمية مطلقاً، وهم لا يظهرون في الأوركسترا إلا بعد أن تقترب المساة من أوجها، ولا يكادون ينشدون من مادتها أكثر من السدس. وهذا هو السبب في سرعة الأداء في مآسى سوفوكليس وبطئه في مآسى إسخيلوس، بل هذا هو السبب الذي أظفر الشاعر الشاب بالشاعر الشيخ كما سنرى فيما بعد.

وقد قعدت أغاني الخورس قيمتها تقريباً في درامات يوربيدز واحتلت الموسيقى المكان الأول فيها جميعاً، وقد حدث ذلك التبدل حينما انحط الغناء وتشوف الأثينيون إلى الموسيقى الملوية الرفيعة التي تذكى الشاعر وتحوم بهم في آفاق شعرية جميلة، ومن هنا اهتمام يوربيدز بالأناشيد والرائي القروية مما سوف نتناوله في حينه إن شاء الله.

وقبل أن يبدأ التمثيل، كان لابد من إعطاء النظارة فكرة عن موضوع الدراما، فكان يبرز من المحراب أحد أفراد الخورس أو الممثلين أو الشاعر نفسه ليقدم المقدمة أو ال Prologue وذلك قبل أن يدخل أحد من الخورس، أما مقدمة الخورس أو ال Episodion فهي ما يقدم به الخورس نفسه قبيل كل مشهد جديد ...

أما مادة الدرامات اليونانية فقد كان لها مصدران عظيمان: أحدهما خارجي ويشمل مشكلات السياسة ومؤامراتها وكل ما يتعلق بسلامة الدولة، والآخر داخلي أو أهلي ويشمل الأساطير الدينية التي تحدد العلاقة بين الناس والآلهة أو بين الآلهة والآلهة أو بين الناس والناس فيما يتعلق بتقليد ديني أو فيما له صلة بتلك التقاليد وفي الدرامات التي تتناول موضوعاً سياسياً لم يكن يسمح للشاعر أن يستهزئ بدولة ما حتى ولو كانت دولة معادية؛ ولم يكن يسمح له أيضاً بأن يثلب طائفة ما من الطوائف التي يتركب منها الشعب الإغريقي. وقد حدث أن ألف الشاعر فرينيخوس

نوزيكا^(١) في درامته المفقودة (نساء غاسلات) ... ولا تدرى ماذا منع الإغريق من إسناد هذه الأدوار إلى السيدات، وليس في المصادر التي بأيدينا ما يلقى النور على ذلك

وقد كان الفنانون يسدون مهارة عجبية في صنع الأوجه التكرية وخاصة لأدوار النساء، وقد جف لنا الأثر كثيراً من فن فدياس في ذلك خصوصاً في أدوار درامات سوفوكليس

أما الخورس (المنشدون) فقد عرفنا أن عددهم في الدرامات (أغاني باخوس^(٢)) القديمة كان خمسين. وقيل ثمانين وقيل غير ذلك، وقد نزل بهم إسخيلوس إلى ثمانية وأربعين لا يظهر منهم في المشهد الواحد إلا اثنا عشر. وقال ستوبارت بل كان يظهر منهم في المشهد الواحد خمسة عشر يخرجون من المحراب في صفوف ثلاثة طولية عدد كل منها خمسة، ويقودهم رئيسهم صاحب الناي وعلى يمينه ويساره قائدا السفين الآخرين

وكان أفراد الخورس يختارون من أشهر الراقصين اليونانيين، ومن الذين صرخوا على الإنشاد والغناء، وذلك لما يتطلبه فن الدراما اليونانية من التوقيع الموسيقي الرشيق الأنيق المنتظم الذي يواهم مجرى التمثيل ويتفق ومشاهد المساة أو اللهاة

أما ملابس الخورس فكان يؤدي ثمنها الثرى الذي تعمد للشاعر بمصرفات الدراما، وكان لكل فرد من المنشدين أربعة (أطعم) من الثياب يغيرها حسب اختلاف المشاهد ...

وكان للخورس المقام الأول في الدراما القديمة، فهم الذين يشرحون الحوادث وهم الذين يعطون للنظارة كل فكرة هامة عن الدراما، وما المثل (أو المثلان أو الثلاثة) إلا قائد التسلسل أو كما يقول أرسطو (The Protagonist) أى الشخص الذى يقود الحديث ويوجهه^(٣). وقد أخذت مهمة الخورس تتضاءل وتقتصر على الشرح الخفيف والأغاني والموسيقى بعد إسخيلوس. ففي درامة المتضرعات Suppliants^(٤) ترى أن الخورس هم أبطال الرواية ذكوراً وإناثاً، وأنهم ينشدون من مادتها الثلاثين على الأقل؛ أما الثلث الباقي فهو للحوار ويؤديه المثلان. فالخورس

(١) موراى ص ٢٢٢

(٢) باخوس هو الاسم الرومانى لاله الخمر ديونيزوس

(٣) موراى ص ٢٠٨

(٤) لخصناها لقراء الرسالة سنة ١٩٣٥ وهي لأسخيلوس

(١) هي الدراما الخالدة التي أعجب بها شكسبير ونظم هملت على غرارها ومنخلصها لقراء إن شاء الله في فصلنا عن سوفوكليس

في المظهر الذي كان ينبغي له بصفته أحد سادة الأوب ، بل هم كانوا يظهرون في مظهر المخلوق المغمور الرديد الذي يثير مرآة الضحك^(١) ويتبعث النشوة والابتهاج ، والسخرية أحياناً . فمن اسم هذه القرية اشتقت كلمة Komôidia لللهاء وللفظة Kômoi لشعرائها ومنشديها ومع ما لهذا الرأي من قيمة ووجاهة فهو ما يزال يفترق إلى إثبات وتدعيم .

هذا ولم تكن مناظر القتل وسفك الدماء تمثل على المسرح ، بل كان يكتفى بدخول رسول فيفاجئ المثلين والخورس بمقتل فلان أو الاعتداء على فلان . وهنا تنفير اتجاهات المأساة ، وتبلغ أوجها بالخطبة الطويلة التي يلقيها هذا الرسول ، لأنه يتناول شرح الاعتداء ووقته ومكانه وكيفيته والقائم به ... الخ . وكانت المأساة في الغالب تنتهي بهذه الخطبة ، فيظهر إله ، خصوصاً في درامات يوربيدس ، فيلقى عظة أو عبرة ، ثم يدخل الخورس إلى المحراب ، وينصرف الجمهور إن لم يكن هناك تحكيم

وعلى ذكر الخطبة التي يلقيها الرسول نذكر أن الدراما اليونانية لا تشبه بحال من الأحوال الدراما التي نشهدها اليوم في مسارحنا ... فدرامتنا تعتمد على الحوار القصير ، أما الدراما اليونانية فتعتمد على الخطب الطوال في أكثر الأحوال ... ولم يوزع الشعراء اليونانيون بيتاً واحداً من الشعر على أكثر من ممثل واحد كما يصنع شعراؤنا اليوم ومنذ عصر شاكسبير ... ومن الظريف جداً أن مترجي الدرامات اليونانية القديمة من الإنجليز والألمان والفرنسيين قد حافظوا على هذا التقليد حينما نقلوا تلك الدرامات إلى لغاتهم شعراً

وقبل أن نختم هذا الفصل نرى ألا يفوتنا أن نشير إلى حرية الرأي الكاملة عند هذا الشعب الأثيني الراق العظيم ... تلك الحرية العجيبة غير المحدودة — إلا ما سلفت الإشارة إليه في تناول بعض المشكلات السياسية — التي كان ينعم بها المؤلف والخطيب والمحاو وكل فرد من أفراد ذلك المجتمع الأثيني المهنب

لقد نشأت الدراما اليونانية نشأة دينية بحتة ... لكن

(١) صنع بين يدي القاري . سوراً من هذا الأله العجيب للشاعر أرسطوفان . وكذلك سنعرض مرة أخرى لنظرية نشوء اللهة عند الكلام عنه .

درامة^(١) آذى بها الأيونيين ، فثارت الطواطر عليه في أثينا وانتهى الأمر بمحاكمته والحكم عليه بغرامة فادحة

وقد كان لأبطال الملاحم المحررية والمسيودية النصيب الأوفى من عناية شعراء الدرام . وكانوا يعتنون كذلك عناية فائقة بأبطال الحروب المروعة التي نشبت بينهم وبين الفرس ... تلك الحروب التي خلقت المجد اليوناني وحالت بانتصار اليونانيين دون تيرر أوربا أما الأساطير التي تعج بها الميثولوجيا اليونانية فقد كانت مادة أساسية للدرامة ... ولا غرو ، فقد عرفنا أن الدراما كانت الفجر الصادق لهذا الفن الجليل العظيم ... والدراما هي أغاني باخوس ، وهي وإن كانت تنشأ باسم هذا الإله المرح الطروب قد أدت إلى المأساة الصارمة المشجية التي تفيض بالألم وتورث الحسرة والأسى

وهنا موضع إشارة إلى رأي طريف جهر به أستاذ عظيم من أساتذة الأدب اليوناني القديم هو العلامة ريجواي ... فقد أنكر هذا الأستاذ أن تكون أغاني باخوس الفياضة بالفرح والمرح والتهريج أصلاً للمأساة ، وزعم أن أصلها إنما هو الأسى والحزن ، والأسى والحزن إنما ينشآن حول الموت وحول المقابر وفي المحافل الجنائزية التي كانت تقام في هذه المناسبات ، وما كان يصحبها من إقامة شعائر الموت والطقوس الدينية المختلفة . ودليله على ذلك تلك المشاهد الكثيرة التي تردح بها المأسى من مناظر الحزن وإبراز أمارات الأسى وتجسيص القبور في المناظر التي تقتضى ذلك .

هذا رأي طريف حقاً ... لكنه رأى لم يشر إليه أحد من قدماء اليونان ، لا أفلاطون ولا أرسطو ولا هيرودوتس ولا أحد ممن أرخ لهذا الأدب المسرحي العظيم . بيد أنه لا يتقص هذا الرأي عدم إشارة أحد من هؤلاء إليه . فهو رأى معتمد لأنه منطقي ولأن الأستاذ قد أورد به رأى آخر في نشوء الدراما الكوميدي كاد ينكر به ما تواتر به التاريخ وأجمع عليه العلماء من أمر نشوئها ، فقد زعم أن الكوميديا لم تنشأ عن الدراما التي هي أغاني باخوس الخمرية المرحية ، بل نشأت في قرية تدعى Kome اشتهر أهلها بممارسة عبادة المنزلا من تقى وودع بل اندفاعاً مع التيار ... وآية ذلك أنهم لم يكونوا يظهرون إلههم الذي هو ديونيزوس أيضاً ...